فنون تشكيلية

ستيف سابيلا: ارتجاج الهويّة

طوابع بريدية من زمن العولمة والبريد الإلكتروني

إنه من جيل ولد تحت الاحتلال، وعاش عند حافة «الزمن الإسرائيلي». ومشروعه الجديد الذي ينتمي إلى الفن المفهومي و«الطوباوية الذهنية»، يطرح سؤالاً لعوباً وجارحاً عن التجاور والاختلاف والحوار. ستيف سابيلا ابن القدس، وقريباً يخرج بمدينته إلى «المنفى»

القدس المحتلة ــ **نجوان درويش**

في عمله الأخير «منتالوبيا» Mentalopia، يبتكر الفلسطيني ستيف سابيلا (1975) مفردة جديدة، اسماً لعمله الذي يتكوّن من بورتريهات فوتوغرافية لمجموعة من أقرانه الفنانين من بلدان مختلفة. كلمة منتالوبيا بخلاف يوتوبيا ـ التي اشتُقت منها ـ تتشاكل مع المفهوم المكاني لليوتوبيا، وتراهن على الحالة الذهنية بوصفها اليوتوبيا الوحيدة الممكنة ربما... في الفن على الأقل.

مزج سابيلا البورتريهات التي التقطها لمجموعة فنانين حول العالم، بطوابع بريدية كأنما يتبادلون عليها بلدانهم. هكذا، نرى الفنانة اللبنانية لميا جريج على طابع بريدي فلسطيني يحمل صورة القدس، فيما نشاهد ستيف نفسه على طابع لبناني. أما بقية الفنانين فقد مزج طوابعهم بشكل عرضي تارة، وبشكل ينطوي على مقاصد طوراً: وإذا بالفنانة التركية تجد نفسها على طابع أرمني، فيما الفنان الأرمني وجد نفسه على طابع أذربيجاني، وهكذا دواليك... إنها فكرة ارتجاج الهوية، من خلال التلاعب بسكونها الذي تمثله الطوابع البريدية. هنا، يبدو الطابع ـ الذي هو أصلاً تمجيد لمكونات الهوية ـ سؤالاً لعوباً وجارحاً عن الهوية والتجاور والحوار. والأفكار هي حصاد ورشة احتضنتها في إسطنبول بعنوان «جيران في حوار»، وشارك فيها 10 فنانين من دول متجاورة، أنتج كل منهم عملاً خلال إقامته التركيّة. وهذه الأعمال ستُقدّم إلى «متحف سراييفو للفن الحديث» الشهر المقبل، حيث سيعرض سابيلا مشروعه «منتالوبيا» مع أعمال الفنانين الآخرين.

> **مشروع فني يقارب مفهوم الطوابع البريدية، طارحاً أسئلة تتعلّق بالحدود والهيمنة والسلطة والزمن**

يجمع «منتالوبيا» المستويين البصري والمفهومي. فالحلة البصرية ـ التقنية للفكرة متماسكة التكوين، بخلاف الكثير من النتاج «المفهومي» conceptual الذي يستسلم هذه الأيام للسهولة والركاكة، ويرتجل «صرعات» غير موظفة فنياً، فضلاً عن الضعف التقني في التنفيذ. الشغل على الطوابع البريدية، هو بحد ذاته مقاربة نقدية لأحد مظاهر الفولكلور في زمن العولمة والبريد الإلكتروني، مقاربة تخلق مجالاً لتوليد أسئلة عن الهوية والحدود والسلطة والهيمنة والزمن. وإذا تذكرنا أن «الإمبراطورية البريطانية» كانت وراء إصدارأول طابع عام 1840، فسنفهم تلك العلاقة الخفية بالتاريخ التي جعلت سابيلا يتطرّق ضمناً إلى فكرة الكولونيالية من خلال طابع البريد.

والمشروع الذي يستمد نسغه من الطوباوية الذهنية، يطرح أيضاً أسئلة الراهن الفلسطيني، والتشوّق الطبيعي للوحدة والتكامل مع بقية الجسد العربي. وهي هنا أسئلة طبيعية يطرحها فنان خارج الإيديولوجيا، وبعيد كل البعد عن الشعارات. فوضعه مثلاً صورة لفنانة لبنانية على طابع للقدس، يشي بحال التفاؤل التي سادت الشارع الفلسطيني أثناء صد المقاومة اللبنانية للعدوان الإسرائيلي الصيف الماضي. وكذلك الأمر مع وضعه لصورته الشخصية على طابع لبناني عن «مباراة بطولة البريدج» يعود إلى عام 1965. لكنّ سابيلا تلاعب في تاريخ الطابع؛ إذ حوله في السطر المكتوب بالعربية إلى 1975 أي تاريخ ميلاده هو، بينما حافظ على السطر الأعلى بالفرنسية الذي يشير إلى تاريخ الطابع الأصلي.

Mentalopia جاء ليعكس أحد الأسئلة الأثيرة لدى هذا الفنان، ألا وهو سؤال الهوية القلقة: منذ معرضه الفوتوغرافي الأول «بحث» (1997) والثاني «هوية» (2001)، بدا سابيلا مشغولاً بفكرة الهوية والبحث عنها في زمن الاستلاب و«الأسرلة» التي تعرّض لها جيل من الفلسطينيين ولدوا تحت الاحتلال ـ وخصوصاً في القدس ـ وعاشوا عند حافة «الزمن الإسرائيلي» الذي لم تدرس بعد تأثيراته السوسيولوجية والنفسية على المجتمع الفلسطيني.

في السنوات الخمس الأخيرة، وصل ستيف إلى تحوّلين في أعماله، الأول على مستوى المضمون. إذ ظهر الموضوع الجمعي أو الوطني في أعماله... وبدا كأنه خرج من ذاتية أعماله الأولى. ولا شك في أنّ ذلك يرتبط بتطور وعيه السياسي، بعدما دفعته أعماله الذاتية لأن يكون جزءاً من المشهد الفنّي الفلسطيني.

في «حتى النهاية... روح المكان» (2004)، جمع أحجاراً من مناطق من القدس، يشعر بأنّها مناطقه الشخصية. ثم التقط صوراً من تلك الأماكن، وقام بتظهير الصور على الأحجار التي عرضها مرفوعة (مصلوبة؟) على قضبان حديدية. بعدها قدّم مشروعاً بعنوان «كان ياما كان» (2005)، يستلهم فكرة «صندوق العجب»: خمسة صناديق مستطيلة في كل منها عرض صوراً تروي حكاية محددة، على المتلقي أن ينظر إليها من الثقب. وكي يؤكد البعد الشعبي والجمعي لصناديقه، طلب الفنان من خمسة تشكيليين مختلفين أن يرسموا الحكاية على سطح الصندوق.

أما التحوّل الآخر فكان فنياً. إذ راح يتجاوز نفسه ويخرج من دور «المصوّر الفوتوغرافي»، ليتّجه في أعماله أخيراً نحو «فن مفهومي» conceptual art تمثّل فيه الفوتوغرافيا وسيطاً لتنفيذ الفكرة. هكذا، لم تعد الفوتوغرافيا إلا وسيطاً كما لاحظنا في عمله Exit (مخرج ـ 2006). قدّم سابيلا في «مَخرج» سلسلة صور تظهر أيدي نساء مسنات (التقطها في مستشفى في ايرلندا)، عُرضت عبر «البروجيكتر» على جدار أبيض في الليل. بدت تجليات الأيدي مثل منحوتات من شغل الزمن، ووثائق لها إحالات اجتماعية وطبقية. وهو عمل صادم وقاس يخرج على الشغل الجمالي الذي وسم عمله منذ البداية.

لكنّ «إشكاليته» الكبرى تبقى مدينته القدس التي يعدّ حقائبه لمغادرتها إلى لندن لإكمال دراسته، أو لأنّه وصل إلى شعور بأنّ «مدّة صلاحيته» انتهى في هذه المدينة التي أقنعنا أنّها الآن في المنفى! «القدس في المنفى» فكرة مشروع جديد يعمل عليه سابيلا، بالتعاون مع كاتب هذه السطور، تُسقط مفهوم المنفى على المكان، وتذهب إلى تقصّي «صورة القدس» في المخيلة الفلسطينية والعربية أيضاً. يطلب «القدس في المنفى» من جميع مَن يمنعهم الاحتلال مِن بلوغ القدس، أن يسجّلوا أول صورة تتبادر إلى أذهانهم عند ذكرها، ويرسلوها بالايميل إلى موقع المشروع (www.jerusalem-in-exile.net). وسيحوّل سابيلا الوصف إلى صور فوتوغرافية. ومن المفترض أن تمثّل التجربة نواة مشروع مستمر لدراسة صورة القدس. تلك الصورة الإشكالية المحمّلة برمزيات الجغرافيا المقدسة كلّها، وبحيوات ضائعة وزفرات منطقة بأسرها... صورة القدس المحملة أيضاً وأيضاً بفولكلور هائل من الخطابة والشعارات؛ فيما الاحتلال يوغل في هوسه بالاستحواذ عليها، شبيهاً بجرذ ضخم يقضم أصابع طفلة نائمة، وهو يغني لها بصوت عال «أورشليم من ذهب»!

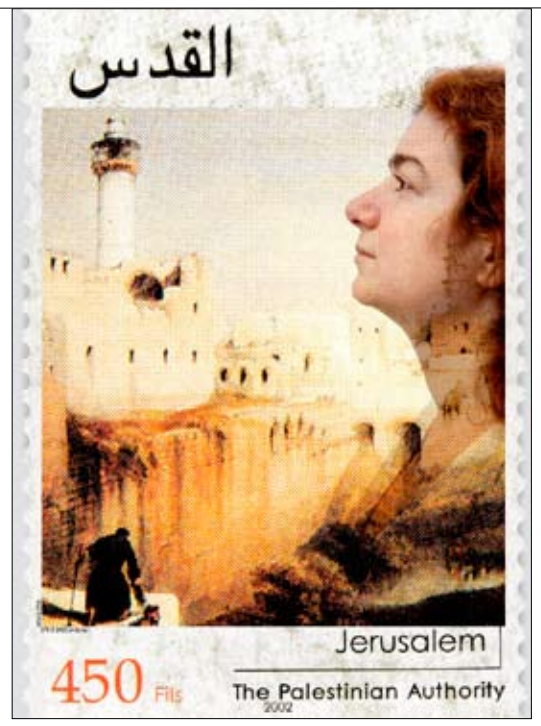

لميا جريج على طابع القدس... وسابيلا على طابع لبناني

«طاقية الإخفاء» في القدس القديمة!

نشأ ستيف سابيلا نشأة شبه كوزموبولتية في «القدس القديمة» التي كانت مطلع الثمانينيات تمور بالسياح الأجانب... وفي بيت ترى من شرفته «قبة الصخرة»، فيما كان والده يعمل دليلاً سياحياً. لكنّ الحياة صعبة في البلدة القديمة حيث الثقل الديني والازدحام السكاني وكآبة الاحتلال وجنوده الذين يفحصون الهوية على البوابات.

أنهى سابيلا دراسته في مدرسة «الفرير» بأجوائها المغتربة، ليدخل غربة أكبر دامت ثلاث سنوات في كلية فنون إسرائيلية في غرب القدس. هناك، درس التصوير الفوتوغرافي، وكان الطالب العربي الوحيد. وبسبب اسمه الذي لا يبدو أنه عربي، إضافة الى إتقانه العبرية، لم يفطن زملاؤه الإسرائيليون إلى أنّ «زميلهم» فلسطيني، فيما كانوا يستفيضون بأحاديثهم العنصرية عن العرب!

عن هذه التجربة، يقول سابيلا: «لم يعرف أحد أني عربي، مع أني لم أنكر ذلك. كنت في العشرين حينها واتخذتها مغامرة. كانت لهجتي العبرية تشبه لهجة الفرنسيين، وكانوا يظنون أنّي فرنسي إيطالي! وحين كنت أخرج مع زملائي في مدرسة التصوير، راح أحدهم يقول لي إنّه يشم رائحة العربي عن بعد كيلومتر واحد وهو لا يعرف أنّه يتحدث إلى عربي لا يبعد عنه نصف متر!

كنت أستمتع بكوني أراقبهم وأراهم وهم لا يتخيّلون حتى وجودي. إنها تجربة «طاقية الإخفاء»: ألّا تكون مرئياً فيما تراقب المجتمع الإسرائيلي وتكتشف الأوهام التي يعزل نفسه فيها». سيتذكر سابيلا لاحقاً تلك التجربة التي تعكس جانباً مركّباً ومعقّداً من مواجهة زمن الاحتلال، وسيرويها بصفتها طرفة... تليق بفنان لامع من سلالة «المتشائل»!

يحدث في الأردن الآن

أين تسمع شعر عبدالله باشراحيل... إلا في «جرش»؟

عمان ــ **نوال العلي**

هل غادر الشعراء؟ أم الشعر هو الذي غادرهم هرباً من لعنة المنبر وادّعاءات الرموز؟ هناك، على منبر «مهرجان جرش الشعري»، وقف خمسون شاعراً عربياً وأجنبياً شاركوا في احتفالات المهرجان بيوبيل لم يكن لفضّته بريق على الإطلاق. وهناك أيضاً اختلط الحابل بالنابل في أمسيات تميّزت بحضور أقل من متواضع، وبجمهور راح يتذمر ويغادر القاعة بحجّة التدخين. فالإصغاء للشعر الرديء مؤلم تماماً، مثل متابعة مشهد سينمائي يشوّه فيه وجه امرأة جميلة. إلا أنّ شعراء جرش لم يحتفوا بالشعر بقدر ما كان المهرجان ـ على علّاته ـ تجمعاً لهم. وهم بأنفسهم وصفوا الأمسيات بأنّها أسوأ دورة مرت على المهرجان منذ عرفوه، علماً بأن معظمهم تتكرر مشاركته سنوياً.

وكانت أمسيات جرش الشعرية قد بدأت مع الشاعر التشيلي لويس أرياس مانثو، بعدما تأخرت الأمسية أكثر من ساعة بحثاً عمّن يتقن الإسبانية، كي يصبح بوسع الشاعر أن يتواصل مع الجمهور. فمانثو لم يأت فقط لإلقاء قصائده، بل كان يرغب بالحديث عن «تشيلي ابنة القارة الشابة وعلاقتها بالحضارة العربية العجوز».

باختصار، كانت الأمسيات كثيرة، فيها القليل القليل من الشعر. وهو على قلته، لم يحفل سوى بالمواضيع الكبرى على نحو كلاسيكي، كأن الحداثة لم تمرّ، إلا برموزها وتحرّرها الخارجي، على كثير من الشعراء المدعوّين. أو ربما أنهم لم يفكّوا طلسمها، فيما العالم بأكمله يعيش ما بعدها. وإلا فلماذا لا يعتزل المصري محمد أبو دومة الشعر مثلاً؟

الشاعرات؟ تلك قصة أخرى. فأين تكمن الشعرية التي تجعل من تلك العبارات الهلامية شعراً؟ وتلك الشاعرة، من تكون لولا أنوثتها! لنستمع إلى آمال موسى أحد أعمدة مهرجان جرش وضيفته المواظبة: «أنا المحترقة/ ببرد وحشتي/ نفخت في الجمر الأثير ماء السماء/ فما نطق الغمام مطراً/ فقدت ناري/ أعيش، عنصري المفقود/ تحاصرني الحدب أمام كل زرقة ضاحكة».

بين الشعراء المشاركين: لاس سوديربيرغ (السويد)، أنجيلا غارسيا (كولومبيا)، كيكو كوما (اليابان)، هدى أبلان وحسن اللوزي (اليمن)، آمال موسى ويوسف رزوقة (تونس)، الياس لحود ومحمد علي شمس الدين (لبنان)، محمد أبو دومة وفاطمة ناعوت وأحمد الشهاوي (مصر)، رشا عمران وتوفيق محمد وعادل القرشولي (سوريا)، غسان زقطان (فلسطين)، أحمد العجمي (البحرين)، ريم قيس كبة (العراق)، حسن نجمي (المغرب)، سيف الرحبي (عمان)، ميسون صقر (الإمارات).

وهناك أيضاً الشاعر البوسني زلهاد كلوتشنين الذي حمّلنا من حزنه أكثر مما نحتمل. لكنّه لم يبخل بشعريته على الأمسيات البائسة: «كدت أقول إن الكلب فضي/ البدر ذهبي/ ولكنه يجعل فضة كل ما تحته/ وفي تلك اللحظة يبدأ إلقاء القنابل/ فأشعر أنّ شيئاً ناعماً وكثيف الشعر بين رجلي».

ولم تخل الأمسيات من الطرائف أيضاً: عبدالله باشراحيل استغل وقوفه على المنصة، ليطلب يد الشاعرة السورية سهام شعشاعة بتقديم الشمس والقمر مهراً على غرار الأفلام الهوليودية. لكن العروس لم تعلن قبولها والجمهور لم يصفق لتلك الرومانسية البليدة، وانفلتت ضحكة من الشاعرة السورية رشا عمران، فما كان من «الشاعر السعودي» سوى أن وجّه إلى عمران كلمات جارحة. عندها غضب بعض الضيوف مثل إلياس لحود ومحمد علي شمس الدين وعادل قرشولي... وطلبوا من إدارة «مهرجان جرش» أن تتّخذ «الإجراءات اللازمة» تجاه باشراحيل، واصفين ما حدث بـ«الإهانة»، فتم «تسفيره» في الليلة نفسها.

وبقي السؤال: هل هناك مكان على الأرض يمكنك أن تسمع فيه شعر باشراحيل... إلا في جرش؟!

من نجوم جرش هذا العام: سهام شعشاع والياس لحود وعبدالله باشراحيل

من دفاتر
مازن كرباج